رواية

تحت ظلال الهدى

بن ميلود صلاح الدين

كتوباتي
kotobati

تحت ظلال الهدى

بن ميلود صلاح الدين

رواية

الكتاب: تحت ظلال الهدى

النوع : رواية

تأليف : بن ميلود صلاح الدين

التدقيق اللغوي : قنطاس عائشة

الإصدار: 2021

تصميم الغلاف والتنسيق الداخلي: مكتبة كُتوباتي

النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي

support@kotobati.com

www.kotobati.com

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن مكتبة كتوباتي.

وكل الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

الفهرس

الفصل الأول: "المدينة الشرقية" 4

الفصل الثاني: ربيع بائس 10

الفصل الثالث: أول الشقاء 14

الفصل الرابع: "النداء"..... 35

الفصل الخامس " الشعور الحقيقي " 59

الفصل السادس والاخير: "اسمي شمس الهدى" 72

الفصل الأول: "المدينة الشرقية"

لم يتبق على خروج فصل الشتاء سوى أيام قليلة، البرد القارص الذي يسبق سنا السحاب فيتزامن مع هطول المطر، يصطحبه تلاعب الريح ليزج به فيستقر فوق مدينة الشقاء، المدينة التي تقبع بين الأوتاد الشامخة والتي دامت صامدة منذ الأزل، بالأحرى هي المالكة لهاته الأرض والوارثة الوحيدة للمدينة،الجبال هي أعمدة الدنيا التي تشد عضدها و تحافظ على اتزانها، هي التي تتوج نفسها بتاج من ثلج و برد وتلبس رداء الجليد، هذه الأخيرة التي أعطت لسكانها صلابة وقوة و شدة كما أعطتها حزنا و يأسا ويوجد أسفل الراسيات نهر يستنشق ريح المدينة الطيب و شهيقه زمهرير قاتل، فلا يسمع منه خريرا مؤنسا بل ألما مهلكا، لكن التفاف الجدول ينحدر إلى أطراف المدينة ليطوقها بلمعان مياهه، و يحيي أرضها و ينبت عشبها لتعطي ربيعا قويا مليئا بالتفاؤل ولعله يعطي الحياة لمدينة الضباب التي أخذت نصيبها فقط من المساحات الكبيرة و الهضاب الشاسعة، فقدم المنطقة

جعلها تستقطب خليطا من الأجناس الذين يختلفون في الأديان و التقاليد، لكن حكم الدولة جعلت من سلطتها منفذا لتنفس عن غضبها في المواطنين و تفرغ فيض غيضها فيهم فتستعبدهم و تظلم نصفهم، الحاكم عنصري نرجسي، تربى تربية الملوك الطواغيت فكان رجل عصره في التجبر و الظلم، توارث الحكم أبا عن جد لكن حقده المتوارث تملكه و سيطر عليه حتى استحوذ شيطان الشهوة على قلبه، فصار عبدا له، ينقاد لأوامره مواليا له لا يفارقه كقرينه، هذا الأخير قسم المدينة إلى نصفين: النصف الأول عزل فيه سكان الريف المتواجدين وسط الراسيات و بين الهضاب القابعة على أطراف المدينة، هم بالنسبة للملك أنبذ القوم و أحقرهم، يجعلهم يدفعون ضرائب العيش و السكن و لو استطاع بيع الهواء لباعه لهم، يستعبدهم إن أرادوا العمل لدى الدولة، ولا حق لهم أن يدخلوا النصف الثاني من المدينة من غير إذن أو أن يخرجوا منهاّ كيفما شاءوا، يطلق على سكانها بالمنطقة الشرقية لأن جذورهم تنحدر من الشرق و هم قدماء المدينة وظلم المستعمر جعلهم يمكثون في الريف، أما النصف الأخر هو بنو أصله و صلبه من المتغطرسين القادمين من غرب المدينة المستعمرين الذين دخلوها عنوة و بقوة غرسوا حكمهم فيها و يسميهم حاكهم بالطبقة الراقية للمدينة الغربية.

على أطراف المدينة الشرقية يوجد مسكن من أهل الريف لأسرة صغيرة لا تقل فقرا عن باقي سكانها، أسرة فرجينيا التي تتكون من أربعة أشخاص لا يملكون سوى أب مريض طريح الفراش أرهقته الحياة و أخذت أهم شيء فيه ألا وهو صحته، هذا الأب الذي تربى صلبا يجابه صعوبات الدنيا و بلاءها و ظلم أهلها، لم يخيل له يوما أن يكون في مثل هاته الحالة المزرية، أصابه الإحباط و غطى عليه الحزن فأربكه إحساسه بالعجز عن التكفل بعائلته الصغيرة و ألم زوجته الراحلة تربى بداخله و ظل ينخر قلبه حتى أسقطه سقيما عليلا، تخلى عنه كل من حوله لأنه لا ينتمي للمدينة الغربية و لا من السكان الأصليين المدنيين فلم يحظ بالامتيازات أو بتعاون من الدولة أي لا يملك أي حق فيها، فما تبقى له سوى ذاك المنزل الهش الصغير و زاد يسير يجمعه بعد كد وعناء طويل، وكل ما تبقى له، في هذه الحياة فقط فرجينيا الأخت الكبرى لبيدرو و سيليا، هي أمهم الثانية البنت القوية الجميلة، التي تحرص على أن تبني أسرتها تحت سقف الحب و الأمان مليئة بالحنان، هي من تضيء بنجومها ظلمات المنزل، هي من تكبدت عناء الأم في سنها الصغير، فلا تسمع أنين لمرض إلا و وافته في الحال، فكانت كملك يجثم على كتف أبيها لا تغادره أبدا، تهب إليه قبل أن يناديها و تقومه عن

حب بلا نكد ولا أف، هي ذكرى زوجته المتوفية، حتى أن لها نفس خصالها و جمالها، فرجينيا ذات الشعر الحريري و عين المها، وصوتها الطنان في الأذان يطرب سامعها، لا تلفظ إلا بحسن ولها لسان الشاعر في المدح، فردوسية الوجنتان لها ثغر بقبلات الملائكة يسير بازدواجية فيرسم وجه الملاك على محياها، أشرفت على تربية أخيها بيدرو بيديها فكسب هو الآخر حنان الأخت و ورث شدة أبيه فتمتع ببنية صلبة و منكبين عريضين و قوة تحمل فاقت عمره، "من ميزات الفقر أن يرسم على جسمك شيم الرجال، يغير نبرتك من بريئة إلى خشنة وكذا حدة عينيك من لطيفة لحادة و حزينة" ذلك ما جعله يصبح خير سند لأخته، أما سيليا ذات البنية الصغيرة و الوجه البلوري و الجسم الهزيل لطيفة الكلام و كثيرة البكاء، تظل ملتصقة بفرجينيا لا تفلتها و لا تتركها لحظة، تراها أمها لا تقوى على فقدانها و الابتعاد عنها.

عاشت فرجينيا بهذا الجمال في حزن و حيرة على أسرتها و أبيها، لديها ذكاء و عقل سديد سبب لها بقع سوداء مسبوغة بحزن في قلبها، كل ما يجول في مخيلتها و عقلها هاته التساؤلات :

كيف أعين أسرتي؟

هل نصيب حظي من الدنيا شقاء و بؤس؟

من قسم الأقدار؟

كيف أكمل حياتي هكذا ولماذا تركتنا أمنا؟ و ما حال أبي؟

كل هذه التساؤلات خربت مخيلتها و أكلت شبابها، الحزن أسرها و الحيرة تملكتها وقهرتها، شقاء الحياة غطى روحها و جف من ماء وجهها، كبرت هذه الحزينة في هذا البيت المتواضع تلم شتات أسرتها و تسارع لأبيها و ترتب منزلها و تفرش لأخوتها، و لا تترك شيء إلا ووافته في الحال، مضت سنوات نسيت فيه فرجينيا من هي نسيت نفسها فوهبت عمرها لذكرى والدتها و منزلها، وفي يوم من الأيام زاد مرض أبيها و أصبح لا يبرح مكانه ولو شبرا يتأوه و يتألم ويصرخ فيتقطع قلب المسكينة و تقبع على رأسه، تربت بيدها الحنينة لعلها تستطيع أن تخفف عنه أو تنقل ألمه إليها، ثم ترفع رأسها للسماء تترجى ربها أن يخفف عنهم كربتهم، في هذه اللحظة يفتح بيدرو نصف الباب وتتبعه سيليا ذات العين البريئة ملتصقة به ليريان مشهدا طالما أحزنه و خنق صدره و ضاق منه خاطره، يرى أخته الكبرى و والده على هذه الحالة المزرية، لقد كبر وأصبح في سن المراهقة لكن بقلب رجل هش متفتت، كجذوة نخلة ظاهرها قوي وبداخلها فراغ مؤلم.

صورة فرجينيا و هي ساقطة بجانب أبيها تضع راحة يدها على خده ويقبلها هو الآخر من يديها تارة و يحن بخده على راحتها تارة أخرى، المشهد أسقط قطعة من قلب بيدرو و هوت به في القاع والأعماق أين يكمن حزنه و حسرته، فغطى عيني سيليا رحمة و لطفا عليها لكي لا ترى مثل هذه الأمور، و حملها ذاهبا بها إلى فناء المنزل ، ذلك المكان الذي يطل على جبال القرية، أبعدها كي لا تترسخ صور الحزن في قلبها وهي صغيرة، بلع حزنه و تظاهر بالتفاؤل ثم بدأ يحكي للصغيرة عن بعض أفعاله المضحكة لكي ينسيها تلك الصورة ويحافظ على قلب شقيقته، لا يريدها أن تعيش حياته، كل ما يهمه هو مليء حنان أمهم المتوفية و أن يرى ابتسامة سيليا فذلك الشيء الوحيد الذي يخفف عنه ثقل الهموم.

الفصل الثاني: ربيع بائس

ها قد حل فصل الربيع فصل الزهور والحياة الذي يعكس جمال الطبيعة الخلابة ويتميز بالرمزية و التجدد، الذي يأتي بعد سبات الشتاء فيرسم لنا أشكالا عدة من النباتات الخضراء ويوقظ أجمل الحيوانات لتسرح فيه بكل أمل وحب، لذلك يقال من عاش سعيدا فقد ولد في فصل الربيع لكن هذه المقولة لا تنطبق على سكان المدينة الشرقية، ربيع أو شتاء لا يهم ما دام الملك ينغص عليهم معيشتهم، و يعلق رقابهم بحبل أوله في يده و آخره في جنده، يسلطون سوطهم على المدينة بأكملها بتجارها و مزارعيها و أهلها يجمعون الضرائب قصرا و عنوة ويحتكرون الطعام عمدا ،سياسته " كن عبدا أو تكون عبئا"، قهر الرجال الذي أصاب والد فرجين هو ما حمله على العمل في المدينة فكيف لا وهو يرعى أطفالا صغارا لا يملكون سواه، لكن بعد المرض الذي أصابه استغنت عنه الدولة بحجة أنه صارعبئا و لا سبيل له في العيش هناك، في هذا الربيع الزاهر والجميل وصل حال عائلة فرجين أقصى درجات الفقر المدقع، و أشد الألم هو الألم الناتج عن الجوع، بكاء سيليا و

دموع خديها لا تقوى عليهم الأم فرجينيا وما عاشته من ضغط أجبرها على التحول إلى الرجل الذي يذهب ليقتات و يعيل، الرجل الساعي المسؤول على النفقة وجلب العيش فتأخذ بيد بيدرو الذي حتما لا يتركها تكابد عناء المنزل وحدها، كما يخشى عليها من قطاع الطرق، أصبح بعمره الصغير يظن نفسه رجلا قادرا على تدبر أمور عائلته، وغيرته على دينه فكان يهوديا محافظا على تقاليد الدين فلا يتركها تخرج من الباب إلا و مرتدية شال على رأسها تاركة أطراف شعرها يسقط على جبهتها، وكان متدينا لا يتخلف عن صلواته في المعبد أبدا.

تركت فرجينيا أختها سيليا نائمة بجانب أبيها، وراحت تجول مع بيدرو باحثة عن طعام أو قماش تواري به منزلهم، وتملأ بطن أختها الصغيرة، وترضي به فؤاد الأب، فكانت حمالة للأثقال و يقطف بيدرو الأزهار بدوره التي سقاها ندى الصباح، وأعانه ماء النهر الذي أعطى جذوتها خضرة فزينها، وبرد الجبال و صقيعه خشن أوراقها فأبقت على لونها الجميل لكن تصلبت من البرد فكانت تشبه أخته الكبيرة، بيدرو الرجل الصلب الذي جابه صعوبات الحياة صاحب القلب الملطخ ببقع الأسى و الحزن، اليد الغليظة المتعبة من مشقات الحياة كل هاته الصفات تعرف جيدا كيف تختار أزهار الأقحوان و

تعقل بياضها، تعرف جيدا كيف تميز أرجوانية الأركيد و أين تكمن مناطق نموها، أقصد ذلك الألم النابع من القلب يعرف كيف يختار الأجمل و يقطف الأحسن، ذلك هو بيدرو يجلب باقات فريدة جميلة ليعطيها لفرجينيا كي تبيعها بكل أسف بثمن بخس، لمن؟ لأصحاب الغطرسة لسكان المدينة الراقية المدينة التي تعج بالمتكبرين و المتسلطين يشتريها منها ذلك الرجل النرجسي ليهديها لحبيبته ظانا أنه هو من اختارها وهو من انتفى أندر الزهور يتباهى بما جلبه بيدرو لينال رضا عشيقته فتبتسم هاته الأخيرة و تشكره بتطبع و تصنع للحياء ويشقون طريقهم إلى الملاهي، تراقبهم أعين المسكينة فرجينيا، ثم تزيح ناظريها لتكمل عملها حتى تنتهي كل باقات الورود، ولا يبقى في يدي هذه الجميلة سوى رائحة الزهور تتعطر بها و تعطر شيء من نفسها المليء بالتعب " شهيق برائحة البنفسج و زفير برائحة التعب"، فتجني ما تجني

و تعود أدراجها إلى المنزل حيث المدينة الشرقية المظلمة ،خطواتها تتسارع كلما تذكرت نصف روحها سيليا التي تقابلها كل يوم ببهجتها منتظرة الحلوى من أختها الكبيرة أو بالأحرى أمها، تحملها فرجينيا و تذهب بها إلى أبيها لتقص عليه يومها، تحكي له كما يحكي الطفل البريء عن أشياءه فلها

قلب أنثى حزين يغمره قلب أم حنين، لكنها ذات عقل رزين، و كل ما تحبه المرأة في جوفها مكبوت دفين، فتعجل لتحكي له عن أزهار البنفسج و الأركيد، أو عن فراشات الربيع التي حلقت حول قرطها فلامست شعرها الحريري، و ودت لو حكت عن نسيم الجبل الذي أحيى وجهها و زاد خديها احمرارا، أو شكل الغيوم وصوت الطيور ولمع السيول، لكن لا شيء من هذا يخرج من جوفها سوى المدينة الدنيئة التي عبست في وجهها وغطت جمالها و ألمت ظهرها و سلخت أنوثتها و أحزنت قلبها والنظرات القاسية للرجال لها، و سخرية البنات منها، أو تحكي عن عبء الحياة الذي قد كسر خاطرها، فتطأطئ رأسها ولا تأبى أن تحكي عن جمال في نفسها لأبيها خوفا أن تغيظه، المسكين الذي لا يستطيع أن يعينها، لا تبوح بأي شيء له كي لا تشقى عليه كثيرا فتشعره أنه حقا عبء في الحياة، ولا تحكي عن انكسار بداخلها فيؤنبه ضميره ويزداد ألمه ضعفين، فاكتفت المسكينة بصنع ابتسامة لا هي بروح فرح

و لا بحزن ظاهر، وتقوم فرجينيا بعدها كالعادة تطبخ حساء يجمعهم ويلم شملهم لكي تسعد بعض الشيء فلا تملك سوى ضحكات الأمل و البأس و الفقر و الجمال التي تعلوهم.

الفصل الثالث: أول الشقاء

تتالت الأيام و زاد ألم الأب و طغى عليه المرض فنادى كل أولاده حوله ليكمل أيامه الأخير على أنغام أصواتهم وحضن سيليا، يظم بيدرو إلى صدره يشم ريحهم، لعله يلقاها في جنته أو تؤنسه في قبره، المسكينان لا يزالا صغيرين و لا يطيقان العيش بدونه، يبادلانه بعناق حميم كأنهما شعرا بقرب أجله، آنسته حرارة العناق ألمه و دنت أميرته فرجينيا إليه، و دموع ثقيلة تثقب العين تسيل منها قد أحرقت جمال خديها و تقول

لا يا أبي لا تفعل لا تتركنا، من لنا بعدك ؟

بكى الأب و أزاح وجهه عليها ليرتاح من حمل ثقل عينيها الحزينتين قليلا، تذكر تصاميم زوجته تفاصيل وجهها تذكر أول لقاء لها و كيف سمياها فرجينا، تذكر ما عانته زوجته من ألم المرض، تذكر جوعها و عطشها، تذكر قوتها وصبرها و ضعفها، مضى شريط المنايا عليه حدث بحدث صورة صورة لف وجهه ليبكي عليها، ثم أعاده و أشار إليها بيده فاقتربت و بجهد مد يده

لوجهها ومسح دموعها مرات عدة و قال لها ما قالته زوجته آنفا قبل وفاتها، فكلماته ما استطاع أن يورثها لها فقط تنهد وقال:

ابنتي أنا لن أموت حين ينقطع نفسي أو عندما مرض أو أقتل أو أهاجر يا ابنتي أنا أموت حين أنسى،" قد لا أعيش غدا، لكن اذكريني في صلاتك و احييني في قلبك لعلي اعش معك أبدا.."

كفلها على أبنائه وقبل رأسها وتوجهت الروح لخالقها، تتطاير و تتمايل في السماء لتلتقطها ملائكة الرحمان فتودعها لصاحبها، فانهارت فرجينيا على صدره محطمة تبكي و تنوح و تضع أذنيها على قلبه و تقول:

انبض يا قلب لا أطيق الدنيا بلا أبي انبض.

و فجع كل من بيدرو و سيليا لبكاء أختهم و تباكو معها حتى أغمي عليهم و سمعهم كل الجيران، فإكراما لأبيها دفن قرب المنزل ليبقى ذكرى لها ولهم، وبعد انقضاء الربيع، لم تتبق زهور يقطفها بيدرو ولا زاد يؤكل، فتذكرت فرجينيا وصية أبيها فقررت البحث عن العمل في المدينة الغربية.

* رسالة فرجينيا الأولى *

بينما هي تتجول و تلقي شعرا و تتمايل بحزن كغصن تتلاعب به رياح الصيف، يرميه من جميع النواحي إما أن يمسكه بلطف أو يشتته و ينثره، تذهب فارجينا شاردة الذهن مشتته لا تعلم إلى أين يرميها القدر، وكيف يلطف بها النصيب، تسارعت خطواتها مرة و تباطأت مرات عدة، لم تعد هاته الحزينة تهرب من نظرات الناس و لا سخرية البنات، بل لم تعد تبالي اطلاقا بهم ولا بنفسها، ذبلت المسكينة و أصبح قلبها الضعيف يرى من فوق جسمها، وهي تجول و تبحث، و تصلي للرب راجية أن يكرمها، حتى رآها رجل يدرك جيدا كيف يختار الأنثى، أعجب بجمالها و وقعها الذي لا يراه إلا ذوي نظر حاد و عميق، لمح فيها تلك الممثلة التي تعطي المسرح حقيقته، فهو مخرج و كاتب سنيمائي، يبحث عن شخصية تعلوها الحزن تلعب دور الحزين، فسألها عن حالها و ماذا تفعل هنا، لم تقل شيء لشدة حيائها وكتمانها سوى أنها تبحث عن عمل، انصدم الرجل من اقبالها بهاته الكلمة وجرأتها، و أسرّ ضحكته بداخله، لما أصابه من حظ هذه المرة، لم يستطع تفضيع اللحظة و بسرعة و لباقة في الكلام

عرض عليها التمثيل، و زينه لها و عرض أرباحه عليها وما سيقدمه لها، لم تقبل ورفضت لأن الطلب لم يكن ضمن تقديراتها و احتمالاتها فاجأها

بسؤاله، و بلطف وحياء و شخصية قوية رفضت دون أن تزيد في الحديث، و أكملت طريقها فتتبعها المنتج بعينيه و لم ييأس فذهب وراءها و قال لها انتظري يا بنيتي

قالت: ماذا تريد؟

قال: الطلب ليس متاح للجميع فكري مليا و سأمنحك وقتا طويلا

بدأ التردد يتملكها وفكرت بوصية والدها و كيف ستعين أخوتها، فصل الصيف ليس ككل الفصول، العمل فيه متعب وشاق و حرارة المدينة آنذاك شاهدة على قهره، فكيف لي أن اعمل في مثل هذا الجو؟ ولماذا أرفض التمثيل مع العلم أنه ليس متعب و يجني أموال لا بأس بها، في الأساس أنا هدفي المال، فلماذا لا أجرب، أنا مترددة كثيرا حسن.

بابستامة متصنعة عرفها هو قالت : قبلت يا عم.

لم يصدق الرجل ما سمع و دنا إليها، فتراجعت خوفا، فهم نفسه فبقى بعيدا عنها وقال يا بنت الريف عملك يبدأ من الغد.

بحزن كبير على وصفه لها ببنت الريف، مسكت دموع قلبها و ألمها و تحملتها مقابل ضحكات إخوتها وقالت حسنا.

عادت فرجينيا إلى المنزل قابلتها سيليا المحبة للحلوى تطلب بعض منها وتلح عليها بأمي أمي هل أتيت بالحلوى

تناديها أمها لأنها تربت على أحضانها منذ فارقت والدتها تحكي لها قصص النوم و تغني لها تهويدتها المفضلة " نم يا صغيري نم بسلام "

أجابتها فرجينا بحنان تقول لها ساعطيك غدا أكثر من حبة اصبري فقط

تراكمت دموع سليا في عينيها و قالت لا ... أريدها الآن

فحزنت فرجينيا وحظنتها بقوة و قالت لها حسن حسن سأعود للمدينة الآن و أحظر لصغيرتي بعضا منها (وبينما هي شاردة في ذهنها تبحث عن حل كيف تجلبها لها) حتا دخل بيدرو بضحكته المستشرقة يحمل كيسا وقال لسيليا احزري ما يوجد فيه ؟؟

قالت الصغيرة بعفوية و عن حفظ أعلم أعلم خبز قديم

قال لا: أعطيك فرصة .... خمني مرة أخرى

قالت بحزن : لا أدري.

إنها حلوتك يا مشاكسة

فانسلت الصغيرة من تحت فرجينيا و انطلقت كالسهم لبيدرو

وقالت هات هات مافيه

قال لا حتى تقولي لي أحبك يا أخي

قالت لا لن أقولها و خطفت الكيس و هربت بالحلوى تجري و تضحك وبيدرو وراءها يصرخ تعالي يا مخادعة.

هنالك اعتلت فرجينيا ابتسامة و ضحكة خففت قليلا عنها و أزاحت الحجرة التي في حنجرتها المسببة بالبكاء و أزيح عنها حزنها قليلا وذهبت ترتب فراشهما ببعض الملابس المرقعة ببعضها، و غطاء ليس بخشن و تذهب هي لتلقي بنفسها على كرسيها تستقبل ربها فتأتي بإناء من الماء تغسل يديها لتقيم صلاتها المسائية اليهودية تيفيلا، فرجينيا ليست ممن يحرصون على الدين فلم تكن تقوم بالصلوات الثلاثة كما كان يفعل دانيال يصلي و يشكر ربه ثلاث مرات كل يوم، لكن حسب ما ينص كتابهم المقدس أن المرأة لا حق لها في تعلم تعاليم الدين كله، اذ فرض عليها فقط واجب الأسرة و الإعتناء بها فكان حظ النساء اليهوديات من التعليم محدودًا، كانت المرأة اليهودية تتعلم كيفية القراءة والكتابة وكيفية القيام بالأعمال المنزلية ،وكانت تتلقى بعض تعاليم الشريعة اليهودية والتي كانت ضرورية في الحياة اليومية، مثل طريقة طبخ طعام الكوشير و كل فتيات اليهود يدرسن في منازلهم لأن الكنائس و المحافل ترى أن الأنثى لعنة و نجسة و لايحق

لها أداء الصلاة مع الرجال، الحد الأدنى لإتمام صلاة الجماعة في الديانة اليهودية هو عشرة ذكور، لا يصح أن تدخل بينهم النساء، ولو تجاوز عددهن المئات، فآلمها حكم الرب و عدله في الدين حتى في العبادات فلم تكن تؤديها على أكمل وجه لأن صعوبته و مشقته و عدم إنصاف النساء فيه قد أوقع الشك في قلبها، ثم تقف لتصلي صلاة المساء المسماة في دين اليهود عربيت، بعد اتمامها تشكر ربها أتم الشكر و تأوي إلى طاولتها لتكب رسائلها التي لا تنطلق بها لأحد و لا تقرابها لأي كان سواها، فذاك ما تملكه لإفراغ هموم قلبها، تحمل القلم و تدني بالورقة لها و تتنهد تنهيدة الألم لترتاح نفسها فتغوص في خيالها و تشرد ثوان ثم ترفع القلم ببطئ شديد تكاد أنامل أصابعها تنفلتان من يديها، خوفا من ثقل الكلمات و تأثيرها، فتحكم قبضتها و تكتب أعلى الورقة عنوان الرسالة

"من فرجينيا إلى رب الدنيا"

أنا لست طاهرة لأحكي لك عن نفسي، لكن سأكتب على ورق نقي لعله يصل إليك لأن هاته الورقة قد علمت مسبقا ما يوحي به حدسي، و القلم لم أفلته من يدي حتى أزيح عن عاتقي حزني، متى يا رب تنظر إلي و تقضي

في حق بؤسي؟ في مدينة الشقاء و ألم فراق والدي و يتمي و حرماني و أنين أختي؟ قد هش جسمي و تآكل من الداخل فلم أعد أقوى أو أصمد، أنا أأمن بالحياة الأخرى لكن دعائي لا يصلك، و أنا منكسرة أدعو ما علمني به ديني هذا الدعاء فمبارك أنت يا رب الذي خلقتني بحسب مشيئتك، لكن ما ذنبي وذنب أبي؟ ولم لم تخلقني على الأقل رجل لعلي أستطيع أن أضع شال كبير حول العنق، ثم أقرأ مرتدية ثوباً أسود وقبعة على رأسي؛ لأعبر عن الاحترام لنصوص التوراة أتجه صوب بيت المقدس، وأحرص على وضع اليدين على الصدر مع حني الرأس قليلاً، كوقوف الخادم أمام سيده لزيادة الاحترام فتقبل مني دعائي و اسعدني، لكن هيهات لبنت خلقت سببا في نجاسة الرجل و الدين هل أنا خطيئة من الشيطان أم ابتالاء و بلاء، تعبت يا رب فهل تسمع لتجيب؟

لم تكمل رسالتها لما أصابها من انكسار شديد و تعب سببه أعمال المنزل فنامت المسكينة على طاولتها الخشبية .

فرجينيا!!! فرجيين ؟؟ فرجيينيا

متثاقلة العينين تحاول فتحهما مثلها مثل الزهرة التي أسدل ستار الشمس عن عينيها فأشرقت بنور جمالها لترى سيليا أمامها تسألها عن أبيها و هي شبه نائمة،

اندهشت فرجينيا من الأمر، و كيف تذكرته الآن و لماذا هي تحن إليه، أم لاتزال صغيرة لا تعلم أن الموتى لا يعودون، بكت سيليا و بقيت فرجينا جامدة فلم تجد إلا أن تضمها لصدرها و تبكي بحرقة معها وقالت في قلبها ألم يسمعني رب الدنيا بعد؟

ثم ذهبت لتوقض بيدرو لتجده هو الآخر متوجها إلى الجدار واقفا يظم رجليه واضعا شال أبيه و قبعته ويقوم بأداء صلاة الفجر ويسمونها صلاة السحر (شحاريت) أما الدعاء الذي يتلونه مع إشراقة كل صباح، فيحمل بين كلماته زوايا سوداء من حياة نسائهم اليومية، إذ يقول الرجل: مبارك أنت يا رب لأنك لم تخلقني وثناً ولا امرأة، ولا جاهلاً فتقبع هاته الكلمة على أذنيها كجمرة أشد حرقة و حمرة فتكوي بها فؤادها، أنا التي تكبدت عناء إخوني يجازيني ربي بدعاء يحزنني ؟ ثم تستسلم لتعاليم دينها لكي لا تقسوا على نفسها و إخوتها و تقاليدها فهي المسؤولة من بعد أمها على توريث هذا الدين لسيليا و أولادها

هل أكملت بيدرو ؟

نعم

تقبل الله منك

آمين

حسن عزيزي سأترك تعتني بسيليا لأذهب انا أبحث عن عمل.

لا لن تذهبي سأعمل أنا و أساعدك

لا أنت المسؤول عن شرف المنزل احفظه فإني سوف أتكفل بالباقي

ثم تتدخل سيليا لتقول: لا تنسي الحلوة

حسن و تقلبها بعناق حار وتخرج إلى المدينة الغربية مدينة النبلاء ومدينة الشقاء بالنسبة لها

* المسرحية *

دخلت فرجينيا حجرة المسرح من باب كبير من خشب، بني اللون و شامخ، واقفة أمام الباب و تحاول بجهد مد يديها لتطرقه لكن تساورها شكوك و تساؤلات عدة، من وراء الباب يا ترى؟ و كيف يكون التمثيل ؟ لماذا أتيت

هل أخطأت ؟ هاته الحيرة المصحوبة بالتساؤلات تمسى بالتردد، لكن ما يعينها على ذلك و يشجعها هو أمل العائلة المتبقية لها يجب أن تجد عملا هذا الذي يهمها، و ما إن تشجعت وطرقت الباب حتى فتحت الممثلة المشهورة ريتا و أقبلت عليها بنظراتها تتفحص هاته الصغيرة ذات الثياب الهشة و النظرات الثاقبة، فجمالها غطى على هيئتها و أنارها، فتمعنت فيها و قالت لها من أنت؟

قالت أنا فرجينا دعاني رجل إلى هذا المكان للعمل، ثم سكتت ريتا و اندهشت من طلاقة كلماتها و صوتها الجياش و المتزن، ثم أعادت النظر لثيابها و يديها السمراوتان التي اكتسبتا بعض الخشونة فتشقق جلد يدهيا و احمر، فقالت لها باستهزاء تريد ذمها

هل أنت من سكان الريف، تتلاعب بأصابعها كأنها نسيت اتجاه المدينة الشرقية؟

قالت فرجينا بفخر من أصلها و حزن على عنصريتهم بنعم

فضحكت بسخرية تظهر للعيان و قالت ما دورك في المسرح ؟

فصرخ المنتج موريس بصوت عال ريتا ادخلي الضيف حالا

بتصنع قالت الأخيرة تفضلي آنستي ادخلي...

فتح الباب لترى فرجينا المنتج مستلقي على أريكته و بجانبه أشخاص يبدون ذا قيمة يلبسون ثيابا جديدة و حديثة فاستحت و سقط رأسها أرضا من الحياء

فتح موريس يديه وقال أهلا بالزائر، ضيف شرفنا هذا اليوم اقبلي تعالي و اجلسي معنا .

دنت فرجينيا و قالت بصوت خجول متى العمل؟ و كيف أعمل،؟ و متى أنتهي و تكلفتي و و و .. فرجينيا لا تأبه للمسرح و لا تعلم ما هو كل ما يجول في ذهنها أن ترى إخوتها بطانا و شبعى و ضحكات سيليا تعلو المنزل، انفجر الحاضرون يضحكون عليها و يتضاحكون من السؤال، فقال لها موريس اجلسي دعيني أعرفك على أصدقائك في العمل

سكتت فرجينا و أكمل موريس حديثه :

هذه ريتا الممثلة الأنيقة، و هذا اسمه رين و الآخر .... روكس .. حتى أكمل الأسامي كلها و قال لريتا اذهبي بها لتغير ثيابها و أطلعيها على النص الخاص بها لتحفظه فلا نملك وقتا نضيعه هيا!!، المسرحية تبدأ في هذا المساء. هيا!!

ذهبت ريتا بفرجينيا توجهها و تملي عليها ما تفعله ساعات و ساعات تحفظها و تمثل لها، فذكاء فرجينيا وقوة ذاكرتها لم تجد صعوبة في النص، ولم تبالي بمضمونه هي تنتظر انتهائه و العودة للمنزل فقد طال غيابها و أوشك حلول صلاة المنحة صلاة النهار و القيلولة.

بيدرو أخي

نعم صغيرتي؟ ما الأمر أنا هنا

متى تأتي فرجين اشتقت لها،

سؤال سيليا نبهه بمرور الوقت و واجسه خيفة عليها و قلق

فقال لسيليا يطمئنها بكذب الآن تكون في طريقها للمنزل لا تقلقي أعلم أنها جلبت لكي الكثير من الحلوى

سعدت سيليا و رجعت لمقعدها تلعب بدميتها التي أخاطتها لها فرجينيا منذ زمن

ثم قام بيدرو الملتزم بالدين بأداء صلاة نصف النهار وبقي جالسا

يدعي ربه ليعين أخته و أسرته هو يحب الذهاب للمعبد لكن بعد المدينة الغربية و فقر حاجياته من الملابس يحتم عليه أداءها في المنزل، لأن أهل

المدينة و سكانها لا يحبون المنطقة الشرقية و يتحفظون و يولون أهمية كبيرة للطهارة.

المشهد الأول " الطفلة اليتيمة"

انطفأت الأنوار و تعالت تصفيقات المتفرجين في المسرح، و أسدل الستار تحت عنوان الطفلة اليتيمة، الحكاية فيها تتحدث عن طفلة صغيرة تركها والدها و ذهب إلى الحرب لخدمة الوطن، في زمنهم زمن الحروب يؤدي الإعلام دوره في مساندة الجيش معنويا ليعزز فيهم حب التضحية و يقوي في الأجيال المواطنة و التضحية، و فرجينيا تمثل دور الإبنة لكن قد أعادوا أباها الممثل روسكي و هو يشارف الموت، كما كان الحال بدأت المسرحية والكل أخذ دوره، مثلت ريتا دور الطبيبة التي أجرت فحوصات للمصاب، و رين دور الضابط الذي أتى بالمحارب أباها، والبقية نظموا مراسم استقبال الجنود، حتى أتت لحظة يمثل فيها روسكي دور الأب وهو ينازع من الألم فهو ممثل متفوق و يعلم جيدا كيف يؤدي مهامه فكان يشارف على الموت لدرجة أنه أثر في فرجينيا تأثيرا حقيقيا لا يبدو تمثيلا،

هنالك سقط ملك الحزن على قلب بيدرو كأنه أحس بألم أخته فشد على قلبه لعله يخفف ألمه و تذكر صورة فرجينيا حزينة و صورة والديه تتراءى أمام عينيه، ضيق الصدر الذي انتابه هو ضرب من التخاطر أي الإحساس التام بالأحبة ينبع هذا الشعور من القلب إلى القلب فيخبرنا أن الطرف الآخر ليس بخير و يحتاجك، فحمل سيليا إلى جيرانه و هرع يجري للمدينة و يتنفس بسرعة، لا أعطى وقتا للراحة حتى لحق بالمدينة الشبه فارغة و الريح تعصر أشجارها و تصدر صوت الأنين، ظل يبحث هنا و هناك و يسأل وهو يعلم أن ليس فيهم من يعرف بنت بهذا السوء، يسارع لكل من يجده بعضهم لا يكلمه و يحتقره و الآخر يسبه و يطرده، و الهلع أصابه حتى أنهكه التعب جلس تحت شجرة يستظل بها و يعصر في رأسه بيديه لعله يلقى حلا أو مكان يجد فيه أخته الكبرى قد ضاق صدره ويقول بداخله يسمع أذنيه خمن يا بدرو خمن فتذكر مكان بيع الزهور قال في نفسه يترجاها لعله يجد ضالته هناك

لما وصل لم يجد أحدا فاستسلم جسدا و قلبه لم يستسلم، حتى سمع أصوات الناس تتبع الصوت راجيا أن يأخذه هو الأخير إلى مراده.

ليأخذ به إلى المسرح فذاك صوت المتفرجين مذهلين من وقع الحدث

فتسلل إلى المسرح دون أن يراه أحد لعله يجدها تبيع شيئا هناك أو تشاهد أحد المسرحيات ليدخل فيتجمد من المنظر الذي رآه

بدأت فرجينيا تصرخ و تبكي و ظهرت صورة والدها أمامها بدل صورة رووكيس المشهد أثر فيها لأن الإنسان بطبعه يتذكر الصور بتذكر الأحداث و كلما رأت كلمات مشابة لكلمات والدها ازدادت المسكينة بكاءا و نحيبا، حتى كاد يغمى عليها، تعالت التصفيقات عليها و الهتافات لما قدمته من عرض مذهل و اندهش المخرج موريس و أعجب بها لكن لا أحد يعلم ما يكمن في قلب المسكينة من ألم و لا يعلمون حالها، أخيرا أغمي على فرجينا من البكاء و الحزن، وسادها الصمت، ثم بكى بيدرو وصرخ صرخة دوت في المكان ألما فرجيييينيا!!!!!!

و هرع يبكي بين الأدراج و يصرخ أختي لا أرجوووكي

فتخطفه منظمو المسرح و أبعدوه و يديه تتوجهان لأخته و يصرخ دعوني إنها أختي دعووني

لم يكن يعي أنها تمثل بل صدق كل شيء كما صدقت هي، هو بالأحرى الوحيد الذي أحس بألمها حقا

فرجينيا لماذا يا أختي تقسين على نفسك، أيقض موريس فرجينيا بفرح وغبطة لما قدمته من عمل، ببطئ شديد و ضعف في الذراعين لا تقوى على الاتزان تحاول المسكينة الاعتدال لتنهض كما أنها سارحة في حزنها و تكتم غيظها، موريس علم مسبقا أنها حزينة اختارها لهذا العمل فخبرته في المجال جعلته يميز شخصيات الناس، لا يهمه أمرهم و لا حزنهم بقدر ما تهمه انجازاته

أعطاها موريس ضعف الأجر ليكسبها و أصر على العمل معها و مدحها كثيرا خوفا من أن يفقد هاته الممثلة البارعة التي أبرهت المتفرجين،
أصابتها الكآبة و أمسكت النقود و رفضت العمل من جديد لكن المخرج أصر و أصر فقالت نعم لتفاديه فقط و بيدرو مرمي خارج المسرح يدوس عليه المتفرجون من كل جانب و هو حزين ينتظر فرجينيا حتى خرجت هي الأخيرة و رأته في حالة يرثى لها اندهشت و شلت في مكانها لم تتحرك حتى لمحها فأتاها مسرعا يضمها و يلم شتاتها وقال لها تبا لك يا أختي لقد كرهتك و بدأ يضربها لما آلمته و هي تقول له آسفة يا بيدرو فهذا عملي، بكيا كثيرا وقال

لها بيدرو لن تعملي مجددا أنا أعمل و بطء حديثهما حتى غطاهمى الحزن و الألم فعادا أدراجهما للمنزل. بخطوات ثقيلة و بعد صمت طويل بدأت الأم تسأل عن سيليا و كل خطوة تخطوها تتذكر أباها فتبكي بحرقة، و تتحسر و تلقي بنظرها إلى المال فتسعد أصبحت محصورة بين حقيقتها و تمثيلها، أيصبر عليها قلبها أم تستغني عنه؟ اشترت لسيليا الحلوى و لبيدرو بعض الملابس و الأكل و توجهت لتلقي بسلام على قبر أبيها و تقول "يا ذكرى الدار يا ضحية الأقدار أهان عليك فراقنا و تترك أولاأك الصغار" و تبكي و يبكي هو معها حتى جفت عيناهما و أتيا بسيليا إلى المنزل و في غرفة ضيقة ومظلمة عزل بيدرو نفسه فيها يؤدي صلاة المساء عربيت وذهبت فرجينيا بما تبقى لها من طاقة إلى حجرتها التي هي مخبأها الوحيد و أملها في التنفيس عن حزنها، تسرع إلى قلمها و مذكرتها لتكتب رسالتها الثانية

"الرسالة الثانية "

"من فرجينيا إلى حاكم البلاد "

إن كنت أنا بنت الريف، شرقية الأصل، شريفة النسب، يهودية الدين صغيرة السن، يتيمة الأبوين، أحرم من عيش رغد بسبب حاكم طاغي قد قسم الشعب لنصفين، أقول لك حتى و إن حرمتنا من العيش و الحياة فلا تستطيع أن تحرمني من الخيال و التعبير، فأنا اليوم على وشك النوم، يسامرني خيالي بأني يوما ما سأغدو ملاكا ذا جناحين أقحوان يحملان ريشا ناصعا، كالبوارح أطوف على مدينتي من كل جانب أزرع فيها الحب و العطف و أنزع بمخالبي شرار خلقها، ثم أهوي عليك أنتزعك من مقعدك بمنقار من حديد أغرسه في قلبك لأخلص الناس منك، أيها الوغد الظالم هل تظن أن الإله سيسكت عن أفعالك؟

** الرؤيا ♥ **

نعم جدتي " الحسناء" ثم رأيت قلبي ينتزع منه قطعة لحم سوداء و وضعت بدلها قطعة بيضاء فما رأيك؟

امممم كم عمرك الآن فرجينيا؟

اليوم مضى على موت والدي 5 سنوات، لكن لماذا تسأليننني يا جدتي ظننتك أقرب جارة تعرفنا أم دنا إليك الشيب و العجز فنسيتنا ؟

أسالك لآن عمري طال و حلمك ما جاك إلا لحكمة و لعمرك.

كيف ذلك أخبريني يا جدتي لم أفهم

قبل أن أخبرك حقيقته، عديني أن تبحثي عن إجابة له

حسن أعدك

دنت فرجينا إلى الجدة حتى لامستها بركبتيها والعين لا تفلت عين الآخر لتقول الجدة مع اتساع لبؤبؤ العين وبسمة تشرق من وجهها: إن الذي أبدلك القطعة هو ربك.

باندهاش و ارتباك تسأل فرجينا جارتها العجوز أليس ربك أيضا ؟

قالت مبتسمة بلى ولكن سبلنا مختلفة

" تولد الحيرة بين الشك و اليقين و كثرة السبل"

فرجينا!!! فرجيين هل أنت هنا ؟؟؟

قامت الجدة تفتح الباب لبيدرو و نادت أخته

سلموا على الجدة و بعناق حميم دام لثوان تمتمت الجدة حسناء بكلمات في أذن فرجين و ذهبا الشقيقين للمنزل.

الفصل الرابع: "النداء"

"النداء"

صبيحة يوم الإثنين يطرق الباب إحدى ضباط الفرقة العسكرية للمدينة الغربية، تفتح سيليا الباب و تمرر عينيها على الرجل الضخم أمامها و ترى بشرة بيضاء و عينان زرقاوتان و وجه متهجم تبدو عليه القسوة ثم تمتد إليها يده فترجع للوراء و تقول من أنت ؟ ؟ و تدخل مسرعة إلى بيدرو لتقف وراءه يتبعها الضابط عنوة و يحمل معه ظرف بريدي ويقول بصوت عال و يطرق بأسفل قدمه الأرض، إنها هيبة الجيش يتصرفون بهاته الطريقة ليثيروا الرعب و الهيبة في نفوس الغير و يقول لبيدروا ...

أأنت هاي أنت

.. يتقدم بيدرو خطوتين للأمام بارزا صدره و علامات الغضب تظهر على وجهه، لكنه يعلم حق العلم من الذي يقف أمامه و يعلم ما سيحل به إن عصاه أو تكلم بسوء، من نشأ في بلد ديكتاتوري يعرف جيدا معنى الظلم، ماذا

تريد سيدي ؟ تفضل اقرأ .... أنت ملزم بالالتحاق إلى صفوف الجيش غدا سمعته سيليا و لم تفهم شيء، ذهبت مسرعة لتوقظ فرجينيا.

خرجت فرجينا واضعة شال على رأسها، توجهت صوب الباب لترى علامات النظام على قماش الرجل، هنا انتبهت إلى أن الأمر فيه خطورة على بيدرو، ارجعي إلى مكانك فرجين بيدرو اخبرني ماذا يريد الرجل منك قلت ارجعي تعالي يا سيليا، أمسكتها أختها من يديها و تولت إلى الغرفة المجاورة بحزن، لكن لم تكتف بذلك و أصرت على معرفة شأن الرجل في أخيها الوحيد، وضعت أذنها تسترق النظر من الجدار فسمعته يقول له لكن لي عائلة و انا أتكفل بها وليس لهم رجل في المنزل غيري أرجوك هل أعطيتني مزيدا من الوقت أو أعتقتني من الأمر

- تعصي الدولة ؟ خذ قلت لك تلتحق غدا يعني غدا و إلا ..

هنا وضع يده على المسدس لإخافة الشاب

- سيدي أرجوك اترك أخي، أين تريد أخذه؟؟ تسارعت فرجين لالتقاطها و إرجاعها للغرفة ضحك الضابط بخبث و غادر منزلهما، أخذ بيدرو بدوره استدعائه و هم إلى غرفته و كله حزن وغضب، لازم مكانه حتى المساء.

بيدرو ... بيدرووو ...

-افتح.... افتح ...

بقيت فرجين أمام الباب تحاوله على التكلم معها " أصعب اختبار للإنسان هو الاختيار بين الطاعة و بين الرغبة " يعني أن بيدرو في هذه الحالة يخاف عصيان الدولة و ذلك ما يسبب أذى لأسرته، و خوفه الأكبر أن يتركهم لوحدهم وهو المسؤول والرجل الوحيد في المنزل، لم يستطع التكلم وضع كلتا يديه على الباب يخمن، شعرت به فرجين و ألقت بنفسها أمام الباب، و تصور له كأنه حائط المبكى فضلت تدعي ربها ليعطيها سؤلها...

فيجيبها بيدرو لما رآها قد يئست واستدارت بظهرها و اتكأت على باب الغرفة حتى أتتها سيليا و عانقتها فبقيا على تلك الحال بضع دقائق...

- أريد أن أسألك فرجين

- فرجين بنعم أخي أسمعك تفضل قل هيا

-.. فرجين هل هذا هو حظي منكم و نصيبي؟

-ماذا تقول يا أخي و الدموع ملأت جفون عينيها؟ لنا فيك نصيب و لك في الدنيا خير مستقبل فأبشر و قل ماذا يجول في ذهنك؟

- سأذهب يا فرجين فهي مجرد سنة أو سنتين و أعود

- لا .. لا تذهب و هيا لنغادر البلد أرجوك هيا لنهرب مع سيليا، أتذكر حفيد الجدة حسناء لقد فعل نفس الشيء و غادر المدينة الغربية إلى بلاد أخرى

- لكن أباه من تلك البلد و له الحق في ذلك نحن أيضا يحق لنا ألسنا من بلد واحد

- لا نحن لسنا مثلهم نحن أقل شأنا منهم في نظرهم، وحفيدها الآخر وهبته للدولة لكن بمكانة مرموقة عكس ما سكون نحن عليه عندهم، فدعيني أذهب فرجين هذا أفضل حل و أقله ضررا "تنظر سيليا إلى أختها و تسمع تحاورهما ولا تفهم شيء سوى البكاء

ورجفة الحزن

- تنتظرني الآن صلاتي اذهبي فرجين...

- هيا سيليا لأطبخ لك شيء تأكلينه تعالي عانقيني لأحملك

- أحبك أمي، حسنا هيا تعاالي لنأكل شيء، تبسمي يا مشاغبة و ذهبت الأختان إلى المطبخ فأكلتا قليلا، ثم توجهتا للغرفة و استلقت الأخت بجانب أختها

- تصبحين بخير سيليا..

- تصبحين بخير أمي أغمضت سيليا عينيها حتى غفت.

وبقيت الأخرى شاردة الذهن تفكر في بيدرو و مصيرهم تفكر في والديها .... ثم فكرت في السر الذي تمتمت به الجدة حسناء و غرقت في تفكير بعيد ثم نامت دون أن تدري.

****

على الساعة السادسة صباحا، بيدرو يصلي صلاته المعهودة، لأن في دين اليهود الصلاة الفردية لا يشترط لهم وقت محدد إنما بعض التبريك و تلاوة التورات لكن لإلتزامه الشديد

وحرمانه من الجماعة صار يفعل مثلهم، لأن الاختلاف في آدائها كبير جدا، أحضرت له فرجين كل ما يحتاجه هذا إن توفر لها أصلا، فكل ما يملكونه في المنزل من حاجيات فهو قليل، وضعت له كما تضع الأم لأبنها المسافر، غطاء يقيه من البرد، ملابس دافئة، بعض الخبز الذي طبخته صباحا له، و قلم و كتاب رسائل، و وضعت كل ما تملكه من نقود لكي يستطيع أن يشتري باقي حاجياته، و أقفلت حقيبة السفر و وضعتها أمام الباب تنتظر خروجه من غرفته، ما إن أكمل الصلاة حتى قال لها لا

- اين سيليا؟ مزالت نائمة حسن ذهب ليقبلها بلطف خشية إيقاظها و لكي لا يحزنها بمغادرته دمعت عيناه و توجه مطأطأ الرأس إلى الباب... حمل الحقيبة و خرج كرجل حازم و قوي، أراد أن يظهر لأخته أنه شجاع و سوف يعتني بنفسه .. مشى بعض الخطوات ... حتى تثاقلت قدماه و لم يقدرعلى أن يزد قيد انش فوضع الحقيبة و استدار. ليرى مشهدا طالما أحزنه

و فتك قلبه، إنها دموع فرجينيا الساخنة التي تنهدل كالمطر من عينيها، رجع إليها مسرعا كطفل صغير و عانقها يبكي لا أريد أن أترككم انا آسف ... اااسف اااسف.

ثم انتفض منها و ذهب مسرعا حمل الحقيبة و توجه إلى المدينة الغربية .. ولم تنطق فرجين بكلمة فقد صدمت و استسلمت.

أين اخي؟؟

ذهب إلى العمل

أي عمل؟

عمل جديد قد بدأه اليوم

إذن سوف يجلب لي الحلوة مساء؟؟

أكيد، تعالي سوف آخذك إلى جارتنا الجدة حسناء لدي عمل الآن

لماذا لا أريد، أريد أن أبقى معك لنلعب أرجوك

لا سوف تذهبي للجدة، قلت عندي عمل

حسن حسن سوف أخبر أخي مساء بكل شيء

رحبت بهم الجدة كثيرا و فرحت بتواجد سيليا عندها فقد اعتادت عليها كثيرا و صارت كابنتها تطعمها و تدللها تحكي لها القصص و تعلمها، بالرغم من كل معاناة الصغيرة التي جعلتها في كبت و صمت كبير، إلا أن الجدة تعرف جيدا كيف تحادثها وتخرجها من وحدتها،

****

عنوان مسرحيتنا اليوم هو " أصابك عشق"

ذا أنت يا فرجين اخترتك لأداء دور العشيقة و العشيق يقوم بدوره ممثلنا الشهير لويس

- لماذا اخترتها موريس ألست أنا من أقوم بدور البطل كل مرة؟ وتستبدلني بهاته، تقول ريتا بهذا الأسلوب و مشيرة بيدها إلى فرجين مستهزئة بها

- ريتا أنا أحتاج في القصة لفتاة شابة و صغيرة، و كما تعلمين فرجين أصبح لديها شعبية كبيرة اكتسبتها من آخر مسرحية لها.

- كم سأتقاضى من هذا العمل الجديد؟ و متى نباشر في حفظ النص ؟

- هنا نظر موريس إلى فرجين وصمت الجميع ...

هو يعرف حق المعرفة أن هدف فرجين الوحيد من هذا العمل لم يكن الشهرة ولا المنصب بل المال فقط، ولأجل من؟ لأجل سيليا فقط..

دخل الجميع إلى غرفة التحضير و تلقى كل منهم جزأه من ورقة الحفظ و أصبحوا يحفظون و يجربون لتترسخ الحكاية في أذهانهم، لكن لخبرة موريس أعطى لهم بعض الحرية في الأحاسيس، أي يقولون ما يشاءون في بعض المواقف لتبدو المسرحية أقرب إلى الحقيقة بشكل كبيير

****

يأتي الشاب الأنيق لويس بلباس عصري جميل، دو النوع الكلاسيكي ليقابل فرجين التي لبست فستانا أبهر كل الحاضرين، كل شيء ترتديه المسكينة يزيد من جمالها، فموريس اختارها لقوامها الحسن و وجها الجميل.

هذه المسرحية جذبت العديد من المتفرجين و لم يحظ موريس بهذا التفاعل الضخم من قبل هنا اكتظت الصالة بالناس، و الكل منبهر بجمال الفتاه و الباقي يعرفون أداءها الجيد، فقد لاقت ترحيبا سارا من الجمهور و أصبحت ذات صمعة في البلد الغربي، لكن تظل فرجين محصورة في التيه و الحزن شاردة، فقد أقسرها الجوع و كسرها حتى صارت لا تبالي إلا بالمال، تقاعست حتى في تأدية واجباتها الدينية من صعوبة الحياة، وكل ما تخشاه هو فقدان سيليا بعد بيدرو، ملتسقة بفكرها في ماذا سيحل بأخيها الوحيد، ماذا سيأكل و كيف سوف يعامل، و تخاف أن يضغطوا عليه و يعاملونه بقسوة لأنه من سكان الريف.

" يا زهرة الأركيد أنا شاعرك الوحيد، والحب فيك لم يعد يشفي غليلي، و الحدس في قلبي صار دليلي، هو من يشدني إليك و ويحارب قلبي إن أراد رحيلي، يا زهرة الأركيد لن أكتب اليوم لك شعرا عموديا كما اعتدتي، ولن تكفيك القوافي ما دمت أحكي، وأكتب عنك، أنت النص بلا فاصلة، لا تشبهي أحدا أنت الفاصلة أنت الحاصلة على قلبي و الواصلة، أنت الفريدة أنت الإبرة التي وجدت في كومة القش، أنت البدر أنت العزيزة، يا زهرة

الأركيد كل يوم أراك فيه بالنسبة لي يوم عيد، لن أعيد مشاعر أو ماض فيك، أنت يوم جديد"

و يلقي أشعارا في الغزل و يمد يده ليلامس يد فرجين فتزيحها عنه

ما بها ألم تحفظ النص تلك المغرورة الدنيئة

" هكذا تقول ريتا على المسرح، أعلم أعلم تريد إفساد المشهد الأخير من القصة

هاي فرجين أمسكيه هيا بصوت خافت يقول موريس لها أمسكيه

فرجين لم تعتد على ذلك و تراه أمر معقد بالنسبة لها و ليس من شيمها أن تفعل ذلك قتنحت من عنده بسرعة و تولت للوراء بخطوتين و بقت صامتة مدة من الزمن...

المتفرجون لم يفهموا شيء، بدأت بينهم تمتمة واستياء و حيرة، بعد ذلك تقدم إليها مجددا لويس محاولا مساعدتها لعلها ربما نست النص، فقال هو أيضا امسكي يدي تعالي فتراجعت أيضا بخطوة للوراء ....

هنا تذكر الخطة البديلة أي الحرية في الكلام لملأ الثغرة

فقال ... حبيبتي أعلم أنك غاضبة مني و حزينة لأني غبت عليك طويلا ولم أراعي مشاعرك أنأ آسف، " لكن من لم يزده البعد حبا لم يحب حقا" فسامحيني أرجوك ...

دنت إليه فرجين بخطوة و نظراتها الحادة نحوه، اندهش موريس و أعجب الحضور بردة الفعل قالت للويس متى أحببتك انأ ؟ و من أنت لتحاول إمساك يدي؟ إن لي في قلبي عائلتي فقط، بيدرو سيليا ... ثم تأتي أنت الأخير لتخبرني عن تفاهة حبك و كأني أحد أقاربك،

اندهش لويس و لم يفهم شيء و حاول التحدث معها تقرب إليها، فصرخت و الدموع شلال من عينيها قلت ابتعد أنا لا أحبك ابتعد، وبدأت تبكي و سقطت على ركبتيها تبكي و تقول ابتعد، ابتعدوا عني...

حزن المتفرجون كثيرا على المسكينة و رأفوا بها، لما رأى موريس الأمر تغير لهذه الدرجة الكبيرة أسدل الستار وأعلن انتهاء الجزء الأول من الحكاية، فهذه الفكرة حظرته لخبرته الكبيرة في الميدان....

أول مرة يحزن موريس على فرجين و يفرح لأدائها الذي لم يفهم فيه شيء ولم يتوقعه أبدا، صفق الجمهور وتوجه الطاقم إلى غرفة التحضير والكل يسقط

اتهامات و كلمات مسيئة إلى فرجين، أسكتهم موريس و قال لقد نجح العمل لا بأس سوف نتدارك الأمر في الجزء الثاني ...

أخذت فرجين مالها واشترت حاجيات المنزل و حلوى لسيليا و أخذتها من عند الجدة، فالأخيرة لما رأت حزنها لم تسألها و لم ترد الضغط عليها عانقت صغيرتها و توجهت إلى غرفتها تكتب رسالتها الأولى لبيدرو.

"الرسالة الأولى"

أخي بيدرو .. أعلم أني لست أكثر من إنسانة نكدية تثير المتاعب .. و تختلط بالحزن و الأسى، أنا أصبحت يا أخي مزاجية جدا .. حينا أضحك بلا سبب وحينا أبكي كثيرا ولا أشكو من علة، وأحيانا كثيرة أطلبك ولا أريد منك سوى المكوث عند عتبة بابنا دون عمل .. دون أكل و لا بأس في ذلك...

أُنْجُو من لعنتي، ولعلك تؤنسني و تواسيني في أيام ضعفي .. لم يعد عقلي يقوى على ذلك، لا أريد أن تنغم لأجلي أو أراسلك لتحزن .. وتقلق علي، أنت تعرف أختك و قوتها أنت الوحيد الذي تحس بضعفها و هونها، فقد عانت الأخت و انكسرت و صارت بين الخفق و النبض تعيش دهرا من الجنون و التيه

. فلست أقل من جنية كل من يطيل النظر إلى عينيها تصيبه لعنة البؤس .. لعنة التيه .. لعنة الأرق .. فلا تهتم ..

ذنبي هو الشيء الذي لم يكن خياري... بلدي ... فقري .... ديني... قبل ان آوي لفراشي أستحي من نفسي ثم لا يكن تَرَجُلِي إلا في بُرَاقِ الورق .. أستبيح قلوب المقربين مني .. أتلذذ بهتك أدمعهم وأحول كل ساحات الأمان إلى وغًا فيها كل أنواع الضحايا .. حروف و أوراق ولا يهمني أبدا إن كان محبا لي أو مساعدا .. ليتك تفهم رمزيتي في الحديث، ذاك الشعور الذي جعل مني مجرمة لا تكف عن استدراج ضحاياها للموت في باحات الفقر .. لأقدمها قرابينا للشيطان الذي يسكنني لتتبارك كتاباتي بالمجون .. بالجنون .. ذاك الذي يجعل مني قديسة في عالم الكتابة .. لهذا لا تبالي بي إني أترجاك.

أخي تركت لك أحب ما أملك في الحقيبة و هي بعض الأوراق والأقلام، اكتب لي، دعني أشم ريحة أحرفك دعني أحس بالعائلة، طمئني عنك، قلي أنك تنام جيدا، و يعطونك خبزا أبيض نقي، قلي أنهم يكثرون لك الجبن الذي تحبه، و إنك أقوى منهم و أصلب، قل لي يا أخي أنك مرتاح و قلبك مطمئن، فسيليا أصبحت تناديك كل يوم في حلمها و تنتظر منك حلوتها قل لي أنك

لن تطيل الغياب و سوف تأتي إلينا بعد أيام قليلة، لقد انتهت صفحتي، أحبك أخي ...

"من بيدرو إلى فرجين"

كنت قد أرسلت لك عدة رسائل و أظنها لم تصلك، لقد علمت ذلك من تصرف جنود المنطقة، لا يهم ... هاته الرسالة يحملها صديق لي تعرفت به أصله من المنطقة الشرقية و مجند عندهم من العام الماضي، يعمل في مكتب الرسائل، وقد رأى منكرا في تصرفات الجنود العنصرية اتجاه شعبنا، لما قرأ عنوان الرسالة شده الحنين إلى الأهل، فجاء وحدثني عن أبي و أخبرته بما جرى وواساني ثم ذكر الجدة فقد كان لها فضل عليه أيضا في ما مضى و أخبرني أن أبلغه سلاما منه وأبدي حبه الشديد لها، و قال لها سلام عليك من إبنك إدريس، أكتب لك هكذا لتعلمي أنني بخير ولي شيء من رائحة الأهل هنا أشمها من بيدرو .....

فرجين لا تقلقي علي فما عشناه هنالك أعطانا من الألم و الصبر ما يكفينا دهرا، تلقيت رسالتك وقلبي ينزف دما لعجزي على القدوم إليكم، لا أستطيع

أن أكتب كثيرا فأنا مرتبك بعض الشيء، أرسلت طي هذا الظرف قليلا من المال لسيليا ولك، كل ما أريده منك الدعاء و أن لا تتخلفي عن صلواتك فالرب ما تبقى لنا ....

قرأت فرجين الرسالة بتدبر و تمعن تتقفى كل كلمة من بيدرو و تبحث فيها و تشم أوراقها و تضمها، هذا هو الحنين المفرط الذي يقود إلى اضطرابات نفسية و ينتج عنها خوف شديد و رهبة لا تفارق صاحبها حتى يفنى، فهي نوع من العقد النفسية التي تباشر الإنسان و تهتك عقله رويدا رويدا حتى لا يصبح يدرك ما يقول و ما يفعل...

- جدتي افتحي لي الباب ... خبر لك جميل يفرح قلبك و ينير بهجتك علينا
- تفضلي فرجين ادخلي
- أهلا كيف حالك ؟
- الجدة: بخير وأنت صغيرتي ؟ و أين سيليا لماذا لم تأت بها معك ؟
- آسفة لقد تركتها تغط في نوم عميق والخبر الجميل جعلني آتي إليك مسرعة أوصله لك

- ابشري ماذا ورائك ؟
- أرسل بيدرو رسالة أخيرا وهو يسلم عليك
- الحمد لله هل هو بخير
- أوأمت فرجين برأسها و قالت نعم، لكن يا جدة هنالك أيضا من ترك سلاما لك
- من ؟
- قال اسمه ادريس و ألقى عليك السلام
- اتسع بؤبؤ عين الجدة فرحا و ضمت فرجين و قالت أأدريس حقا ؟ اشتقت له الحمد الحمد لله

لم تخبريني عنه يا جدتي من يكون إدريس هذا ؟ لم ألحظ في قريتنا اسما كهذا من قبل ...

- إنه شاب طيب من أسرة محترمة سأخبرك عنه يوما ما اذهبي الآن و تفقدي سيليا
- حسن سوف آتي بها إليك و أذهب للعمل بدوري أيضا فلي بعض الأشغال أريد أن أنهيها .

الإنذار

خرجت فرجين إلى العمل بعدما تركت سيليا عند الجدة متجهة إلى موريس تقول في نفسها " لن أعمل بعد الآن اكتفيت من التمثيل و الكذب على نفسي، لم أعد أحتمل مزيدا من التطبع و التصنع لا يقوى قلبي ولا عقلي على ذلك، لا أريد مالا يأتيني هكذا لم أخلق للتمثيل "

وما إن وصلت فرجين إلى المسرح حتى سمعت دوي صاخب و هول كبير أصاب الناس ودخان وسط المدينة، و الكل فار و يصرخ ويقول الحقوا الحقوا، انجوا بأنفسكم نحن نتعرض للهجوم " الزلال المفاجئ مع الدخان المتصاعد سببه النار الطائرة وهي برميل معبأ بالبارود كان يستعمل في الحروب على أنه اشد الأسلحة دمارا "

-الست فرجيين ؟

-نعم موريس ماذا يحصل

-تعالي معنا أسرعي ولا تطيلي لا وقت لدينا

-لا، سأذهب أختي سيليا تركتها هناك

-تعاالي قلت تعالي

- ريتا ريتا .. أدركي فرجينيا و اجلبيها المكان خطير

أمسكتها ريتا تجرها من يديها حتى صعدت بها القطار

" لنرجع للوراء قليلا عندما تبدأ الحرب في المنطقة الغربية يصدر إنذار لكل المواطنين باللجوء إلى القطار في الحالة الحرجة القصوى لكي تنقذ شعبها و لا يعيقها في الدفاع عن المدينة من العدو، و كانت فرجين التي لا تفهم شيء في هذا من ضمنهم وسار بهم القطار و فرجين تصرخ انزلوني انتظر ... لدي أخت تركتها خلفي لكن لا جدوى فلا أحد يسمعك في الضجيج و لو كنت أمامه، وهكذا بقيت فرجين تصرخ و تحاول المرور و الخروج ولو أمكنها القفز لقفزت، حتى يئست واختلطت بين الناس وخارت قواها ...هذا ما أصاب المسكينة ففي مثل هذا الوقت قطعا لا تدرك البنت ما تفعل...

****

سمعت الجدة في المدينة الشرقية طرقا على الباب تعرفه حق المعرفة اقشعر بدنها منه، فأسرعت إلى الباب لترى حبيبها ولدها أحمد فاتحا يديه إليها يعانقها و يقبل يديها و رأسها و الفرحة تغمره، فعجلت بدخوله حافلة به و سعيدة بقدومه، يذهب معها شوقه و شوقها بالحديث و يسرق بنظراته كل جزء

من المنزل ليملأ عينيه بما فقده و يسترجع ذكرياته الجميلة، يمرر يديه على الأفرشة وعلى الجدار ويحاول لمس كلش شيء لتختلط ريحه بريح المنزل و الجدة تسأل عن حاله و تتبعه لأن جلسا الإثنين ... كيف حال الجيش هل أساءوا إلى ولدي ؟ هل أكل و نام و ارتاح ؟؟ كيف حال أصدقائك ؟؟ وهل تعرفت على جدد؟؟ هنالك تذكر أحمد صديقه المقرب بيدرو فبدى على وجهه الحزن رأت ذلك الجدة فضاق صدرها و أوجست خيفة مما ستسمعه فقالت : ما بك أرى بهجتك انقشعت قال : نعم يا أمي فقد صادفت شابا يعود لهاته الديار و أحزنني حاله و عيشه المضني قالت من هنا؟؟ قال نعم كان يدعى بيدرو.. شدت أحمد بكلتا يديها و أغلقت فمه خشية أن تسمعه سيليا وقالت أين هو أعاد معك؟ فهم أحمد أن يكتم صوته و قال بصوت خفيف لا و لن يعود قالت أقصر و أوضح قال : أظنه درج، بل متأكد بأنه لن ينجو لماذا اكمل و اشرح الأمر يا بني ... قال: لقد أوكل له مع باقي المستشرقين بأن يكونوا في أول دفعة في الحرب و لم نر أحدا قد نجى من قبل في هاته المهام قالت الجدة؛ لا حول ولا قوة إلا بالله قال اطمئني فاعهده شهيدا قالت بل كان يهوديا قال متبسما : أماه لقد أسلم بيدرو و صار اسمه زكرياء فرحت الجدة كثرا و حزنت على حال أخته سيليا وقالت أخته الصغيرة هنا الحمد لله إذن

أين المدعوة فرجين قالت الجدة لا أعلم منذ بداية الحرب لم نراها أظنها ممن غادرو المدينة و هي في المدينة المحاورة ماذا؟؟؟ سأذهب يا أمي لأجدها فهي وصية صديقي زكرياء و قد وعدته بالتكفل بهن ترك أحمد بعض الرسائل التي لم تصل فرجين عند الجدة و حمل صورتها و توجه إلى محطة القطار متجها نحو المدينة فقد بدأت الأوضاع تهدأ فقرر أن ينتظر رجوعها وبقي هنالك يشاهد كل النازيلين من القطار و يتفقد و ينظر إلى الصورة و يميز بينهم و ظل على هاته الحال أسابيع حتى فقد الأمل برجوعها فقرر حتما أن يسافر إليها حمل أغراضه و استودع الجدة و ذهب.

****

لما وصل القطار للمدينة المجاورة ذهب كل شخص منه عند صديق أو عائلة له هنالك و كالعادة أهل المدينة معتادون على استقطاب اللاجئين و احتوائهم و مساندتهم رغما أنهم ليس بنفس ديانة بلد فرجين لكن بقيت فرجين ملقاة على قارعة الطريق لا تدري من حملها و وضعها هناك و لا كيف وصلت على حافة الطريق يمر عليها الناس يقذفونها بأبصارهم

المملوءة بالشفقة و يتساءلون من هي و ما بها، و معظمهم يراها منعدمة كسائر أحوال الفقراء فيترك بعض المال أو الخبز بجانبها و يمضي، الشرود الذي أصابها جراء الصدمة يبقي عينيها مفتوحتين كأنها ترى كل ما يجري من حولها ولكنها مغشاة بالكامل وبقيت على ذلك الحال حتى تعامدت الشمس مع الأرض و اشتدت حرارة المكان ... جسدها تلقائيا حركها دون أن تقف إلى حائط تتكئ عليه بظهرها و بقت هكذا حتى غشاها النعاس و نامت على الطريق بعد سويعات قليلة مرت جلس بجانبها عازف كمان شيخ كبير جعل هذا مكان له لإظهار موهبته و مكسب له يعيل نفسه به لم يبالي بفرجين و هي مستلقية على الأرض نائمة و بدأ بالعزف يتلاعب بآلة الكمان كأنها جزء منه يصدر أنغاما حزينة حسب الجو الذي يعيشه البلد، حتى وجد دون أن يدرك فرجين تقف أمامه و تسلط نظراتها الحزينة على وجهه تبدو له أنها مركزة معه و متأثرة به، لمح حزنها و أحس بكل ما مرت به من ألم و معاناة مرسومة في عينيها و ما كان عليه إلا أن يزيد من ريتم العزف، حتى حوله لقصة حزينة يكاد المار يرى صور لغنائه، طار عقل فرجين و انسخلت روحها منها مغادرة جسدها الهش، تبحث عن السعادة و تتراقص على أنغام الحزن و تترنح يمينا و شمالا كالسكران في سكرته الأولى و أين السعادة، يا

شيخ لا تتوقف و زد الإيقاع و اذهب عني حزني يا شيخ اكمل فأنا في مكان لا أريد النزول منه ما كل هذا الهدوء من حولي لا أسمع سوى نبضات قلب العجوز و هو يعزف أنا في عالمي الخاص و هذا العازف مخلصي و منقذي من الكآبة اعزف اعزف اعزف و صرخت فرجين صرخة أسمعت كل الحضور الذين لم تنتبه لوجودهم ظنت أنها لوحدها و أنها هادئة فهي لم تكن تشعر بشيء سوى غناء العجوز، نظر إليها و أوقف الكمان خوفا فرأى جفون عينيها تملؤها الدموع و الدماء و الناس من حولها أرعبوا و خافوا لما شاهدوها ... كانت تبكي حزنا و أنا ظننت أنها حقا سعدت بغنائي و حمل كمانه و غادر و أصيبت فرجين بالجنون.

****

إن كان جوعا هذا الذي ينخر بطني فلا أبالي ولو مزقها، لقد شهدت أكثر منه في صغري، و إن كان هذا البرد الذي يكسر ظهري و يعيق حركتي فلا أبالي فقد عانيت الأمّرين من قبل و تخطيتهما، لكن لم لا أقوى على النهوض؟ أرى أشياء تحول بيني و بين الناس كغمامة سوداء و غربان تحوم حول رأسي و عقلي ليس كما عهدته، أريد شيء و هو يريد شيء، أريد أن أصرخ و أبكي

و وجهي يضحك، و لماذا اللعاب يسيل من فمي؟ ولا أستطيع غلقه، وأين صاحب المزمار و صاحب الكمان الذي أسعدني ؟

لحظة أين أنا و من أنا؟ هل نسيت حقا من أكون؟؟

أين عائلتي و كيف لي أن أنام في هذا المكان المقزز

لكني مرتاحة نوعا ما فقط ابتعدوا!!!

جواد:

مابالها هذه الفتاة تصرخ؟

المسكينة تبدو متشردة أو مجنونة على ما أظن

لكني لم أرها من قبل هنا هل رأيتها أنت؟

لا يا عزيزتي هذه أول مرة أراها ،.أنا أذهب للعمل كل يوم من هذا الطريق

اعطها بعض المال يا جواد أرجوك صدقة لعلها تنجينا يوم البعث

تفضلي صغيرتي

" صرخت فرجين ثانية لما مد يديه عليها و لا عجب فقد أصبحت تخاف كل شيء و يصور لها أن كل الناس سوف تؤذيها " و بكت

تأثرت زوجة جواد و بدأت تتقرب لفرجين خطوة خطوة حتى صارت بقربها و نزلت على ركبتيها لكي لا تنفر الصغيرة منها و قالت أنا مثل أمك لا تخافي وهذا مثل أبيك

نظرت فرجين لها و قالت أمي ماتت و أبي كذلك و كأن تأثير الكلمة أعاد إليها عقلها لثوان

حزنت زوجة جواد و دون أن تشعر ضمت فرجين لصدرها و عانقتها عناق الأم لإبنتها

و ظلت فرجين تحتها تبكي حتى خارت قواها و نامت مثل الطفل البريء " نامت المسكينة كما ينام الجنين في بطن أمه، فهذا يعرف باسم الضوضاء البيضاء إذ أنه يغفو تحت صخب مألوف له في بطن أمه و يبقى كذلك حتى يولد فلا ينام إلا على صوت شبيه لما عهده أو بحضن حنين يؤنسه

هنالك أصرت على أخدها معها و حملاها معا للمنزل.

الفصل الخامس " الشعور الحقيقي "

أتعرف هذه ؟؟ هل شاهدتها من قبل ؟؟

لا :

من فضلك انتظر ... هل شاهدت بنت بهذه المواصفات؟

لا آسف لا أعرفها

هاي أنتم هل رأيتم بالجوار بنت كهذه؟؟

اممم دعنا نرى لا لم نرها

ظل هكذا أحمد يسأل الناس حتى مضى يوم كله و لم يجدها

ثم مكث في نزل و بعد صلاة الفجر تماما دعى ربه أن يعينه على إيجاد الفتاة و يؤدي أمانته إلى الجدة

خرج كالعادة مسرعا و يجول بناظريه يمينا و شمالا و يسأل الناس و لا أحد يعرف أين هي

حتى قضى الله أن يمكث بجانب صاحب المزمار واضعا قبعة على االأرض ولكن لا يغني شيء ولا يعزف

وضع أحد قطعة نقدية فيها عسى أن تكون صدقته تجلب له قدرا و تفرج عنه كربا

فقال الشيخ شكرا يا ولدي أتريد أن أعزف لك شيء؟

قال أحمد ولم؟

قال لأجل مالك و صدقتك

قال أحمدإانما هي لله و لا أبتغي منك شيئا

تنهد العازف و قال أنت مسلم إذن؟

قال نعم وأنت؟ قال أنا مسيحي

لم يرد أحمد الخوض معه في نقاش عن الدين لعجلته و قال لا بأس بذلك أنا ذاهب.

ثم ذهب أحمد و هو محتار في أمره ولا يعلم أين يجد الفتاة فعزم أن يذهب لقرية أخرى يكمل بحثه ثم عاد للنزل

و في الرجعة رأى نفس الرجل مقيم عند الرصيف بحالته و لازالت نفس القطعة النقدية في قبعته فتوقف عنده و قال

سلام عليكم

أهلا بك ولدي

يا عماه أتريد شيء آخر؟ خبزا يواري جوعك او ملبسا دافئا ؟

قال العازف لا فقط إذا عندك ماء تفضل به

قال أحمد ليس عندي لكن سآتيك به

ثم ذهب أحمد و أحضر له قنينة ماء و أعطاها له

قال شكرا و شرب منها حتى ارتوى و قال ما أقدمك على هذا؟

قال أحمد ديني يأمرني بالرحمة و الصدقة

قال العم أنا إذا عزفت لقيت من أعطى نقودا و لكن ذهبت مني قدرتي فلم أحصل على قرش سوى ما أعطيتني

قال أحمد إنها صدقة يا عم نجازى بها عند الله و لا تنقص منا شيء

قال العم سمعت عن دينكم و كذبت، لكن صدقت ما رأيت

ابتسم أحمد و قال إن ديننا و دينكم لا يختلف كثيرا إنما فقط بعد كتابكم جاء كتابنا فمنهم من آمن و منهم بقي على عهد آبائه بعد تحريفه

غير العم الحديث قائلا أنت غريب عن البلد ؟

نعم وصلت قبل ثلاث أيام فقط

هل أنت تائه أو ما شابه تبدو مهموهما كئيبا

نعم لقد أضعنا أخت لنا هنا و بحكمة أخرج صورة الفتاة و أراها للعم فعرفها لما تركه فيها من أثر الغناء

فقال أعرفها أتبحث عنها؟

انتفض أحمد وقال اخبرني يا عم أرجوك أين هيا أين ذهبت متى كانت هنا

قال العم لا تقلق فقد أخذها أهلها

أهلها ؟؟

نعم رجلان أتيا هنا وجداها مستلقية بجانبي

أين أخذاها؟؟

وجه العم أحمد إلى المنزل و أراه الطريق لكن علم أنه لا يعرف كثيرا فقرر الذهاب معه لإرشاده.

******

توجه العازف مع أحمد إلى مكان تواجد فرجين و دار بينهما حديث طويل كان كالآتي:

أتعلم يا صغير معنى الفن ؟

قال أحمد نعم أعلم ولكن حدثني أنت عنه

تنهد العازف و بعز قال الفن هو القدرة على إيصال الإحساس بصورته الحقيقة للغير فيؤثر فيه و يجعله يشعر بما يشعر به المرسل سواء عبرغناء أو رسم، عند إتقان هذه المهارة سوف تصبح فنانا راقيا

قال أحمد : و ماذا تريد أن توصل بعزفك للناس؟

قال العازف ؛ شعوري أكيد

قال أحمد ما هو شعورك ؟ كيف يكون ؟

ـ حسب حالتي يا صديقي إذا كنت سعيدا أعزف سعادة و إذا كنت حزينا أرسل حزني

- وماذا تأخذ من ذلك ؟ أي ماذا تستفيد أنت ؟

- إحساس الآخرين بي و الشعور بقلبي أو مشاركة الناس حزنهم و فرحهم

- و يسعدك ذلك؟

- نعم

- وكيف رأيت فرجين؟

- من هي ؟

- البنت التي نبحث عنها

- اه تلك الحزينة لقد ظهر حزنها في وجهها كأنه الظلمة و القهر

- عزفت لها؟

- نعم أكيد و عزفت حتى رأيت جفون عينيها يحكيان شلالا من البؤس و بكت و تألمت حتى انصرعت أرضا

- ماذا جنيت؟

- أهي بخير

- لا

- إذن أين الفن ؟ ألم تقل أنك تسعد الناس

أصيب العازف بحزن و قال لكني حاولت الشعور بها

- هذا دور الإله الذي يبدع في شفاء القلوب و طمأنينتها

- الاله ؟

- نعم أليس عندك رب تعبده ؟

- نعم ولكن عن ماذا تتحدث يا صديقي أي دين تقصد ؟

- هل تعرف شيئا عن القرآن الكريم؟

- سمعت عنه من اللاجئين فقط

- قراته؟

- لا أكيد فلست مسلما

- إذن أنت لم تعرف شيء عن حلاوة الكلمات و لم تذق حقا معنى الإحساس

- لي من العمر ما يقارب الستين و كلها فن و عزف يا أخي

- رغم ذلك يا عم

- كيف لكم أنتم المسلمين أن تثقو كل هاته الثقة بإيمانكم فوالله ما رأيت أناسا يعتزون بدينهم كما تفعلون فما هو السر ؟

- السر يا عماه يكمن هنا " وأشار لي قلب العازف بإصبعه ثم وضع راحة يديه على قلبه و قال هذا الشيء أن صدُق و آمن يعرف الحق و لا يحيد عنه ألم تقل أن الإحساس أهم شيئ ؟

- نعم

- ومن يستطيع إيصال الإحساس إلى الغير أكثر أنت أم الإله؟

- الإله طبعا

- إذن ما رأيك أن أتلوا عليك بضع آيات من كتاب الله و تمعن فيهم عسى أن يلين ربي قلبك فتشعر بما نشعر نحن المسلمين

- اقرأ يا صديقي هات ما لديك فأنا فنان و أحب سماع كل شيئ بكل أنواعه فهذا شغفي في الحياة

- توقف أحمد و نظر للسماء و قال ربي ألهمني ماذا أقرا عليه و أغمض عينيه هنيهة ثم قال بسم الله الرحمن الرحيم

- وقف العازف مذهولا من قوة الجملة و كيف قالها أحمد بخشوع و نور في وجه

انتظر أحمد ذاك منزل فرجين وصلنا و هاهو ذلك الرجل أمام منزله جالس

" ذهب العازف يركض نحوه و ترك أحمدا لم يكمل ما أراد البوح به "

- انتظر يا عم .. ذهب خلفه أحمد يجري

- قال العازف للرجل مرحبا كيف حالك ؟

- اا عازف الطريق صح؟

- نعم هو و إننا في أمر طارئ

- خيرا

- لندخل و نتكلم

- دخل أحمد و العازف و جواد

- جلسا في بيت معيشة و قال عازف أنصت يا أخ جواد هذا الرجل اسمه أحمد وهو من المنطقة الشرقية، اذ أنه بعد الحرب فقد أخته و وها هو ذا يبحث عنها، ورأيتكم أخذتموها معكم في ذلك اليوم فهلا أعطيتموها لنا من فضلكم فأنا متأكد من أنها نفس البنت في الصورة، هاهي الصورة انظري ..

نعم انها المدعوة فرجينا لكن المسكينة اصيبت بالجنون من يومها و لا اظنها تقوى على النهوض لأريكم اياها..

- اندهش أحمد و وكز في قلبه من الكلمة و قال مجنونة ؟

- نعم و وضعناها من ذلك اليوم في مكان مخصص لا نقدم لها سوى الطعام و هي لا تأكل و تأبى إلا أن تنام فقط .

نادى جواد زوجته ....

" ذهبا معا إلى مكان فرجين رآها العازف فحزن لما تذكر أول لقاء معها ثم قال أحمد من فضلك يا زوجة العم هلا أتيتي بها هنا ووضعتي على رأسها شالا أو ستارا

و أراها مكان في غرفة نظيف

خافت فرجين كثيرا و تمشت معها بصعوبة و بطء و عيناها سوداوتان يغمرها حزن كبير

ذهب أحمد صوبها و جلس أمامها و قال بسم الله الرحمن الرحيم

اقشعر جسد العازف و كان له سابقة في سماعها فتشوق لما سوف يحصل و بدأ أحمد بقوله

" يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) .. السورة رقم 36 من قران كريم

أحمد مع تلاوته الرائعة و الخشوع ينبعث منه كأنه ضوء الصباح، أصيب كل الحضور بقشعريرة و شعور غريب لم يستطع أي أحد منهم الكلام فأكمل أحمد القراءة على المريضة و قال لها اغمضي عينيك و بنوع من الراحة و الإطمئنان أغمضت عينيها لكن العازف لم يقو على كل هذا الإتقان لأنه أفضل من أن يعرف معنى جمال الصوت و الفن و يقول في نفسه أهو غناء؟ لا ليس هو عرفت كل الغناء و لم أر هذا ؟

أهو كلام الإله؟ نعم

فوالله ما رأيت مثل هذا من قبل

كتم العازف حبه للأمر و ركز على ما يدور في فرجين

فرآها تحمر ثم تبرد ثم تشتد و تتراخى كان هذا الكلام يخرج من جسدها شيء عظيما

و أكمل أحمد حتى آخر الآية فاستفاقت فرجين كأنها إنسان جديد كان نائما و رأت من حولها ثم نامت من شدة التعب

تركها أحمد و قال لهم دعوها تستريح فهي بإذن الله بخير

قال العازف ما فعلته بها لم يكن شيئا طبيعيا أهو سحر ؟

- استغفر الله بل هو شفاء لما في الصدور

- ما هذا ؟

- هذا هو القران الكريم الذي تحدثت لك عنه من قبل

- صدقت والله ما كذبت فهو كلام الإله و ما شعرت من قبل مثل الذي شعرت به الآن

- تبسم أحمد و حمد الله على ما رآه و سمعه

- قالت الزوجة إنك إنسان صالح يا أحمد و دينكم هذا ليس ببعيد عن ديننا و لولا الفرقة السياسية لكنا في صف واحد

- ماذا تقصدين بالفرقة

- أقصد نحن نتبع دين الحاكم لنعيش بخير فهو يجمع ضرائب من غير دينه و يعفو عن أشياعه

- لكن الله من يرزق الناس جميعا

- سكتت الزوجة و قالت نعم و لم ترد أن تزد في الحديث و كلها سعادة بشفاء البنت

قال لهم أحمد أنه سوف يأخذها إلى منزلها فلها عائلة تنتظرها

- ألست اخوها؟

- لا أنا كفيل بها بعد موت والديها و سوف تعيش هاته البنت مع جدتي .

*****

الفصل السادس والاخير: "اسمي شمس الهدى"

بما أن أحمد شارك في الحرب و من أهل البلد فقد امتاز بالحصانة و مكان في الأرض الشرقية و له الحق في الدخول و الخروج من البلد كيف يشاء ألبس فرجين لباس محتشم كأنها مسلمة و راق لها ذلك فقبل الخروج معها إلى الطريق بساعة جرى هذا الحديث معهما

- من أنت و كيف عرفتني و تقول أني أختك ... و قبل كل شيء شكرا لك
- بل الشكر لله و نعم إنني كما وصفتك لهم أنك أخت لي في الله
- وكيف عرفتني ولما تبحث عني ؟
- نظر إليها و تبسم و قال لست أنا من أبحث عنك
- إذن من !
- سيليا

- طارت فرجين من مكانها و بصوت مرتفع أختي سيليا تقصد؟؟؟

- نعم

- هي و جدتي الحسناء

- اااه أنت أحمد الذي تحدثت عنك الجدة و ذرفت عينها دمعا و قالت كيف حالكم؟ و حال أخي بيدرو؟؟؟ ألم يأت معك للبحث عني ؟ و حزنت

- أسر حزنه بداخله و قال لا لم يأت لنذهب نحن إليه و إلى سيليا .

- و كيف أثق فيك؟

- قال ألم تثقي في كلام أشفاك؟

- قالت بلى و الله

إذن هلمي ارتدي هذا و قد جلب لها حجابا كاملا

- قالت ما هذا؟

- رداء المسلمين

- لست مسلمة

- سوف تكونين

- تبسمت و قالت ربما

- و تبسم أحمد و خرجا للطريق حيث القطار مباشرة ليعودا أدراجها

- أحمد كونه مسلم ترك لها مقعدا بعيدا عنها و في الطريق حمل كتاب الله يقرأ منه ليطوي عنه سفره، وبقيت فرجين تشاهد أخلاقه و طيبته و علمت يقينا أن من أتى بهذا الدين لهو حق من يعبد و تتوقت لمعرفة المزيد عن الدين و ظلت تسال أحمد عنه لتتعلم ما استطاعت طيلة الطريق.

****

حيث قالت له بحياء لو عرفت هذا الدين ما كنت أشتكي من ربي ولكن بعدما سمعت تلاوتك كنت قد خرجت من عالم الخيال إلى الواقع و رأيت أشياء تتزعزع بداخلي و تتألم و تريد أن تنقذ نفسها فقط، فهي كحرارة تارة تحرق قلبي و تتجول بين مفاصلي لم أعلم أتؤلمني أو تؤلمها و تارة برودة و كل أيام الشتاء تسري في جسدي من رأسي إلى أخمص أرجلي و هذا القرآن يتغلغل في صدري كالنور يطهر سويداء فؤادي و يريح عصبي و يرجع عقلي فكنت أنت تقرأ و أنا أتذكر رسائلي و ما قلته لربي فكأنه استجاب و طهرني لكن أرشدني فو الله ما لبث حتى تداركت أنا هذا الكلام كلام الله الملك الذي أحتاج أن أسمع كثيرا و طلبت المزيد لكي تقرأ حتى أرتاح فعملني إياه، إن

أردت بي خيرا فإني أحس أني لو ملكت هذا الدين ما احتجت أنيسا يواسيني بعدها ولا خفت ظالما و لا اشتكيت لأحد فأنا الآن شخص جديد و أتمنى من أخي بيدرو أن يتدارك الأمر و يشعر بما شعرته فوالله هو أحق بهذا الدين لكونه طيب القلب مقداما و شجاعا من ارتباطه باليهودية و قرابته لذلك الدين قوي.

- هل تريدين معرفة الاسلام ؟

- نعم

- أي مجال يشغلك فيه ؟

- حدثني عن السيدة مريم و من هي حقا

فهم أحمد لم سألت عنه و ارتباط سؤالها بدينها القديم فقط لمحت أنها شككت فيه، ثم قال إن مريم عندكم كالتي عندنا

اندهشت فرجين و قالت

- كيف ألست مسلم !؟

- بلى مسلم ولكن أنتم عبدتموها و نحن قدسناها و لكن لم تقل اعبدوني أنا و ابني ولكن فعلتم فهل قرأتي كتابكم المقدس؟

- نعم أكيد

- وهل قالت اعبدوني أو أنا ربكم في عبارة صريحة ؟

- لم تقل لكن هكذا تعلمنا

- إذن شككتي ؟

- نعم و كنت أتألم كثيرا من هذا الأمر

- نحن نعبد إله واحد لا إله غيره و هو من خلق مريم و باقي الرسل و نحن نؤمن بهم و هو من أتى بكلام شاف به قلبك فلا أزيد عن هديه إلا هذا القرآن و لن أخوض في فتوى أو مناظرة إلا لإنسان يتعمد مقاتلته هذا الدين ولا أظنك منهم

فشعورك بالقرآن خير دليل و كاف لمعرفة أنه الحق، أليس كذلك؟

نعم صدقت.

وأريدك بعد ذلك أن تتعلمي الدين و تخلصي النية بالشهادة

- كيف أخلص النية !

- رددي معي

- حسن

أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدا رسول الله

أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدا رسول الله

- من محمد ؟

هنالك أخرج يوسف من جعبته كتابا صغيرا يرافق دائما القرآن و هو سيرة رسول الله و أعطاها إياه و قال هدية مني

أريدك أن تصلي إلى طريق الهدى و تري شمسها تنير قلبك

راقت لها هاته الجملة فقالت أريد الهدى بحزن

فقال لها أتمنى أن تكوني بعد هذا شمس الهدى و تساعدي كل من حولك و تنيري طريقهم

وقعت كلمة الإسم على قلبها وقالت سوف أغير إسمي فلا أطيق تسمية فرجين بعد الآن

نظر إليها أحمد و قال فلتكوني شمس الهدى إذن

فرحت به فرجين كثيرا و قالت لأحمد هل عندك ورقة و قلم

قال عندي

قالت ناولهما لي و كتبت آخر رسالة لبيدرو

الرسالة الأخيرة من شمس الهدى إلى بيدرو

و بدأت تكتب و تتبسم و جاء في طيها كالآتي

سلام عليك أخي بيدرو أعلم أنك سوف تندهش من إسم صاحب الرسالة و إسمي الجديد فها أنا اليوم برداء جديد و قلب جديد و وجه جديد أرى نفسي كأني خلقت من جديد وسوف أخبرك بهذا التغيير عندما أصل إلى المنزل اشتقت لك أخي و قد قبل دعائي أخيرا فقط أنتظر أن يجمعنا الله معا وأختنا في أقرب وقت و نتحدث كثيرا و كثيرا، سعدت كثيرا بمعرفتك لهذا الرجل النزيه أحمد

" ثم نظرت الى أحمد و هو لا يزال يمرر عيناه في كتاب الله و تبسمت "

أخي لن أطيل عليك فهذه الرسالة الأخيرة مني و بعدها أعلم أننا سوف نلتقي قريبا

سميت إسمي شمس الهدى و أتركك تخمن لماذا و تتشوق لمعرفة الأمر ....

ضحكت فرجين و حمل رأسه أحمد و نظر إليها و قال لمن هاته الرسالة أظنها لعزيز عليك

احمرو جهها خجلا و قالت نعم لأخي بيدرو

- بيدرو ؟

- نعم

هنالك لم يستطع أحمد أن يتلفظ بالحقيقة الصادمة التي يخفيها و يحزنها فهي لا تعلم باستشهاد أخيها و بحكمة حكى لها قصة عن تضحية الصحابة في عهد رسول الله و كيف أثابهم الله ليمهدها للصدمة فلا يريد أن يرجعها كما كانت

عن تعويض الله أتحدث ..

.....

وصل القطار إلى المحطة الأخيرة و ذهب بشمس الهدى إلى المنزل أين التقت أخيرا أختها بعد مدة طويلة

بعد طرق الباب الذي تألفه الجدة سارعت إلى الباب و تبعتها سيليا الصغيرة تنظر ما وراءه

حتى فتح الباب لترى أحمد و شمس الهدى أمامها فبكت فرحا و عانقت هدى عناقا طويلا و بادلتها هي الأخيرة نفس الشعور و بقيت سيليا تنظر و تبكي و و التسقت في هدى تصرخ و تقول فرجيييين يا أمي اشتقت لك جثت على ركبتيها فرجين قبلتها و حظنتها من كثرة الحنين لها..

قومي فرجين و تعالي إلى بيت المعيشة لترتاحي من تعب السفر

و حملتها و قالت تعال يا أحمد فعندي حديث لك مطولا مع فرجين

نظر إليها أحمد مستغربا ثم قال

إسمها الآن شمس الهدى .

تمت بحمد الله.